مفكرة

جسدي في بندقية الفقراء

- ١ -

جسدي الذي تعشقينه ، بندقية الفقراء .. محشوة بالدم، والحقد على الحقد ، والحب للبحر ، والغابات ، والاطفال ، وعينيك .. جسدي المجبول بعشرين عام من التشرد بين الموانىء والارصفة والشتاءات والاكواخ والمعامل والحقول والبؤس ..

جسدي الذي داس بقدميه وعينيه شمس الذهب ، وسجاد الورد ، وموسيقا الضجر .. عاشق متيم بوحل القرى وزينكو المخيمات وانغام البنادق وقمر الدم ..

جسدي الذي تعشقينه ، يعزف على شراييئه ، قصائد دمشق المذبوحة من شراييئها المحشوة بالفقراء ، والجوع .. المداسة بجزمة عسكري فرخته الات نيويورك ..

دمشق الياسمين ـ الاشلاء . دمشق النهر المكمم بالخوذ وفي صدغة سبطانة مسدس امريكي ، ومياهه تجري بوجع مكتوم فوق جثث الورد المشنوق في القلعة و « المرجة» وسميراميس .. والزنزانات ...!

دمشق التي تنمو حشوتها ، ويدي تنمو ، وساعدي يشتد ، وحقدي يطغى لانتزاع الصاعق .. وازلزل قاسيون فوق دماغ الاسد النازي .. دمي الذي تعشقين قطرة من بردى الذي هرب ينابيعه كي يتدرب في مراكز العصف والنسف والتفجير ..

بردى افرغ اشجار الحور ، لتصفر كلماتي في جوفها .. ، ويرفعها سبطانات دم تجرف الدبابات والخوذ عن صدر بلادي!.

- ٢ -

* موسيقا . فراشة . سماء زرقاء . ازهار .. غزالة ونبع. وربيع يغني . وحبيبتي ترقص (الفالس) على ايقاع قلبي .. لو هاجمني الموت ، لهزمته حبيبتي بقبلة دافئة .

* ووقفت بين يديك ، زهرة براستيل كان قلبي ، وفي امواج عينيك ارتمت . رغم بحار الموت ، سنشمع قارب فرح ، رغب قذائف ارض يغمرها الحقد سنطلع وردة حب .. ونهاجر بين ذراعي لبنان !.

* وترن اجراس الهاتف فرحة بالربيع يكلل صوتك القادم ، يزهر صوتي احزانا خضراء واسرارا تحبو بين النبرات المعشبة احلاما تبكي ، وتضحك ، وتنفجر ..

آه ، اوه .. صوتك يجرحني حتى العظم ، تبكي العصافير ان ذرفت دمعة ، وتهر الاشجار الاوراق وتحتج عارية يغمرها المطر ، وتومئين ببسمة منكسرة ، فافتحي زنديك للامطار والرياح ، وتهيأي للعاصفة الطالعة من قلبي !.

* تعالي نرقص بين انقاض المدينة مسربلين بأزهار الدمع والدم . القي اسلحتي ، وادنو من حذرك المخملي ، ارفع الغطاء في الظلام ، يلمع جلدك شهيا كالخبز الساخن ، فألدغ في القلب !.

* انتظر وايوب سميري ، يفترش الليل المدينة المضاءة بالرصاص والقذائف والدم ، يرن هاتف غرفتي كثيرا ولكن صوتك لا يأتي .. آه يا صوتها ، ذبلت ازهاري .. وتفسخت بالفراغ ذاكرتي ، فتدفق في حقولي ، واغمر بمياهك يا نبع الفرح وشلال الحبور ، صحرائي ، بخجل كنت تطل من ثقب السماعة ، افتح حلقي بعطش النار ، فتذرف قطرة تنش في امعائي ، وتمضي ، ليتني اصما ربما كنت اتخيلك منسابا من ثقب السماعة !.

- ٣ -

غدا تشرق شمس لبنان قرص دم ، جناحاه منجل ومطرقة.. وتسافر هياكل البنادق صوب الرماد ..، وبندقيتي وحدها تنمو باسقة من جذور الدم ..، تغرد اغصانها وردا لا يذبل ، وسمادها جثث لا تنفق ..

كم رشقة اطلقت في الحرب ؟!. عشرات القصائد ، مئات الكلمات ، ورسقت قلبي بين يدي صيدا .. ، كان لبنان منفى العشاق الدمشقيين ..، وحين اضحى وطنا حاولوا قتله . صيدا احزان بلادي وحنان امي وأفراح اشقائي بصوتي ، صيدا تصد العساكر باللحم وتلجئني بالاجفان ، زهرة دمي طلعت في لبنان ، والقت جذورها في دمشق ، غدا تستدير ، وتشرق قرص دم ، جناحاه منجل ومطرقة !.

- ٤ -

تنفتح الابواب والنوافذ ، وتدخل القذائف بهدوء ، تجلس فوق الكراسي والاسرة .. وعلى المرافىء ، وارصفة البحر تنتظر القوارب الاهلين .. فالبحر جائع ، والياسة اتخمت بالدم .. وعانقت حبيبتي على ابواب الشتاء .. كنا غريبين .. فتوجهنا صوب جزيرة ضائعة !.

- ٥ -

اشرب الشاي ، اسمع اغنية عن الخنادق ، واقرأ قصيدة لسان جون بيرس الذي مات في ضجة الحرب اللبنانية ، وانتظر صوت حبيبتي ، وادخن .

والان انتهت القصيدة ، وانتحى سان جون بيرس زاوية من غبار البحر . دفاتري ملطخة بالدم ، واظافري تكشط الحرب عن جسدي ، فأقف عاريا بين ظل القذيفة وظل حبيبتي .. وتأخذني قصيدة ، واشلاء الفنادق تلطخ ذاكرتي . اطوي قلبي في حقيبة الحب ، واشكل في خصري مسدسا ، وأكوم اوراقي متراسا .. سأخطف حبيبتي ، فارفعوا الحواجز، واطلقوا الرصاص في الفضاء ، واقطعوا اسلاك الهواتف !.

★ ★ ★

لوجه حبيبتي شكل رغيف الخبز .. لعيني حبيبتي ومض نبعين في صحراء ، سأقبر الذاكرة في ابتسامتها ، واركض في حقول الشمس !.

★ بيروت ١٩٧٦

بقلم : هادي دانيال